بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أمَّا بعد :

فإن الحديث عن التدبر حديث جليل طويل ؛ في جلالة واتساع الحديث عن مقاصد القرآن نفسِه ؛ فالقرآن خطاب الله للخلق ، والتدبر جوابهم عنه ، وحين يخبر التفسير عن معناه ، يحكي التدبر أثرَه في النفس والحياة .

وفي هذه الورقة حديثٌ موجزٌ حول ثلاثِ قضايا مؤثرةٍ في منهج التدبر :

الأولى : أبرز المناهج التدبرية الحديثة .

والثانية : التقسيم الأنسب لموضوعات التدبر .

والثالثة : هل من التدبر ربط الواقع بالقرآن ؟ وكيف يكون ذلك ؟

واستيعاب الحديث في كل قضية من هذه القضايا يستغرق أوراقاً لا ورقات ، لذا جعلتُ الاختصار والتركيز لها منهجاً ، وقدَّمت بين يدي هذه المسائل عباراتٍ مختصرة في التدبر ، تتبين بها مناهج التدبر المعاصرة قرباً وبعداً ، ويُرجَعُ إليها في تقييم تلك المناهج وتقويمها .

وبالله تعالى التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد ، وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

❖ ❖ ❖

أولاً :عباراتٌ في التدبر :

* التدبر .. تكريمٌ للإنسان ، ومنهجٌ للإيمان :

أيُّ تكريمٍ للإنسان أجلَّ من أن يمهل اللهُ العبدَ حتى يسمع كلامه ويتدبره ، ثم يحكم ويختار بعد تأمّل وقصد للحق !

إن الله تعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن بمجرد سماع القرآن ؛ بل دعاه إلى تدبر هذا الكلام والتفكر فيه ؛ ليكون حكمه بعد ذلك عن علم ويقين ، فهناك ينفع الإيمان ويثبت : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩] ، فالتدبر هو الطريق الموصل للحق عن علم واقتناع ، أما الجواب عن الخطاب بلا تدبر : تقليداً ، أو إعراضاً وتكبراً ، فهو ما ذمَّه الله تعالى :

- فقال عمَّن ترك التدبر تقليداً ومحاكاة بلا تفكر : ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، فلو جاءهم ما جاء آبائهم الأولين لآمنوا به . وهذا مانعٌ عن التدبر من خارج النفس .

- وقال عمَّن ترك التدبر عناداً وإعراضاً ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤] . وهذا مانعٌ عن التدبر من داخل النفس .

فمن سلم هذين الأمرين حصل له التدبر على التمام .

ومن ثمَّ فإن التدبر -بمنهجه القرآني- لا يوصِل لغير الحق ، ولا يُتوصَّل به إلى باطل؛ فهو حالة خاصة يتجرد فيها قارئ القرآن وسامعه من حظوظ النفس ، والهوى ، والأحكام المسبقة ، فكأنه نازلٌ عليه ، ومخاطبٌ به على الخصوص ، فلا تملك النفس عند ذاك غيرَ الانقياد والاستسلام حين يهيمن القرآن عليها ، ويستولي على عقل وقلب سامعه . ولذلك أمر الله رسوله > بإسماع المشركين كلام الله – في مقام الدعوة والبلاغ

: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٦] ، كما حرص الكفار على الحيلولة بين القرآن وأسماع الناس بكل سبيل : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت: ٢٦] ، ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[الأنفال: ٣٥] ، وفي مقابل ذلك أمر الله المؤمنين بكمال الاستماع للقرآن ؛ لا بالسماع ولا الاستماع فقط ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤] .

وبهذا تتبين صفة المُتَدَبِّرِ في القرآن ؛ وهو من اجتمع له : سلامةُ عقل ، وصحَّةُ قصد . وبالتفاوت فيهما يتفاوت المتدبرون ، وتتفاوت المعاني التدبرية .

*** حقيقة التدبر :**

إن (التأمل لإصابة الحق) هو غاية ما يكشف عن حقيقة التدبر ومعناه ، فكل تأمل في القرآن أورث علماً وعملاً –الحق– فهو تدبر مأمور به شرعاً ، ومحمودٌ فاعله قصداً[1] . وعند التأمل في المقاصد الكبرى التي دعا الإسلام إليها جميع الخلق – كتحقيق العبودية لله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦] ، وكمال الطاعة للرسل : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[النساء: ٦٤]– تجد الأمرَ بالتدبر كذلك جاء مطلقاً في كتاب الله لجميع الخلق : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩]، وبنفس الصيغة الدالَّة على التعليل والغاية : ﴿ لِيَعْبُدُونِ ، لِيُطَاعَ ، لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ﴾ ؛ فعُلِمَ أنه من مقاصد الدين الكبرى كذلك ؛ لكن من جهة كونه وسيلةً لأعظم المقاصد وهو

---

(١) ينظر مقال : تدبُّرٌ في التدبر ، ضمن ملتقى أهل التفسير على شبكة الانترنت(www.tafsir.net) ، ومفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن (ص 50) .

تحقيق الإيمان : ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩] ، فهو الطريق اللازم لتحقيق العبودية لله ، وكمال الطاعة للرسل ، ونحوها من المقاصد . وخلاصة القول : إن التدبر إنما يُفهَمُ في ضوء حقيقة الإسلام نفسه ومقاصده ، وليس عنه بمعزل .

* **مقاصد التدبر :**

أمر اللهُ بالتدبر جميعَ خلقه بلا استثناء :

- فخاطب به المشركين في قوله : ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٦٨] .(١)

- وخاطب به المنافقين في قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء: ٨٢] ، وفي قوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤] .(٢)

- وخاطب به المؤمنين في قوله : {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِتَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص: ٢٩] ، في قراءة أبي جعفر : بالتاء على الخطاب .(٣)

- وخاطب جميعَهم في قراءة الجمهور بالياء على الغيبة : ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩] .(٤)

---

(١) ينظر : التفسير الكبير 23/ 96 ، وتيسير الكريم الرحمن 2/ 130 .

(٢) ينظر : التفسير الكبير 10/ 156 ، و28/ 56 ، والتحرير والتنوير 5/ 137، و 26/ 114 .

(٣) ينظر : جامع البيان ، للطبري 20/ 79 ، والبحر المحيط ، لأبي حيّان 7/ 379 .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز 4/ 503 ، والتفسير الكبير 26/ 177 .

ومن خلال معاني تلك الآيات في سياقاتها الظاهرة ، ومن خوطِبَ بها –وبعضها يشمل أكثرَ من مُخَاطَب– ، تتحدد أغراضُ التدبر ومقاصدُه في القرآن ، **فهو طريقة شرعية معتبرة في تحقيق جُملَةِ مقاصد :**

أولها : إزالةُ الشك في القرآن ؛ في مصدره وأخباره وأحكامه . وهذا يورث اليقين بأنه من عند الله ، كما في آيتي التدبر التي خوطِبَ بها المنافقون .

ثانيها : نفيُ الاختلاف عنه ؛ سواءً اختلافه في نفسه ، أو اختلافه مع الواقع . وهذا يورث اليقين بأن كل ما فيه حق لا باطل فيه ، وأنه متفرِّدٌ بذلك عن كل ما سواه ، كما دلت عليه آياتُ التدبر التي خوطِبَ بها الكفار والمنافقون .

ثالثها : الظَّفَرُ بخير الدنيا والآخرة . وهذا يورث اليقين بأنه سبيل الخير الكامل في الدنيا والآخرة وصلاحهما ، كما دلت عليه أعَمُّ آياتِ التدبر ، والتي خوطِبَ بها المؤمنون في قراءة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ت:728) : (وأمّا كيف يحصل اليقين ؟ فبثلاثة أشياء ، أحدها : تدبر القرآن . والثاني : تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق ؛ التي تبين أنه حق . والثالث : العمل بموجب العلم)[1].

فينبغي أن يُستَثمرَ التدبرُ في هذه المجالات التي دَلَّ عليها القرآن .

*** دوائر فهم القرآن :**

التعامل مع القرآن يكون من خلال ثلاث دوائر أمر بها القرآن ، ولا سبيل لفهمه إلا من خلالها :

الأولى : دائرة التفسير :وفيها تحديد المعنى ، وبيان المراد .

---

(١) مجموع الفتاوى 3/ 330 .

الثانية : دائرة الاستنباط : وفيها نظير المعنى ، ومثيله في القصد والغاية .

الثالثة : دائرة التدبر : وفيها دلائل الأصول والمقاصد الكبرى التي تُعرِّف بالقرآن : «أنه من عند الله » ، وبما فيه : «لا اختلاف فيه » ، وبالغاية منه : «سلامة الاعتقاد ، وصلاح العمل» .

وأيسر هذه الدوائر منالاً : التدبر ؛ فهو من كلِّ أحدٍ ، وفي كلِّ زمان . ثم : التفسير ؛ وهو العلم بمعاني زمن التنزيل ، وهو ميسور –بأصوله وضوابطه– لعامة العلماء . ثم : الاستنباط ؛ وهو ما يستخرج من تلك المعاني ، وهو أدقها مأخذاً ، ويزيد في شروطه وضوابطه على التفسير ، وليس إلا لأهله من خاصة العلماء .[1]

❋ بين التدبر والتفسير :

– الآيات التي تحدثت عن علاقة العباد بالقرآن وموقفهم منه لم تأتِ بلفظ التفسير ، وإنما بلفظ التدبر ؛ فهو ما كُلِّفوا به لنيل الغاية العظمى : اليقين بالقرآن في مصدره ، وأخبَاره ، وتشريعاته .

– مجالات تدبر القرآن عديدة .. ومنها : تدبر معانيه ، وما أُريدَ به ، والذي هو تفسيره .

– القرآن خطاب الله للخلق .. والتدبر جوابهم عنه .

– القرآن كلام الله .. والتفسير يبين معناه .. والتدبر يحكي أثره في النفس والحياة .

– التفسير بيان عن كلام الله .. والتدبر بيان النفس عمّا مسَّها من كلام الله ، وما أثار منها ، وما تختاره بعد ذلك من الانقياد أو العناد .

---

(١) ينظر : استدراكات السلف في التفسير (ص 27–33) ، و(معالم الاستنباط في التفسير) ، لنايف بن سعيد الزهراني ، ضمن بحوث مجلة معهد الإمام الشاطبي بجدة ، العدد الرابع 1428هـ .

۞ ثانياً : أبرز المناهج التدبرية الحديثة :

* المنهج القرآني في التدبر :

وهو المنهج القائم على حقيقة التدبر كما بينها الله في كتابه ، والمحقِّقُ لمقاصده المذكورة في آياته ، و أبرز ما يميز المنهج القرآني في التدبر : طريقة التدبر الحق ، والذي لابد أن يكون :

أولاً : بتأمُّلٍ ؛ في مبدأ الأمر وعاقبته .وهذه الدلالة اللغوية اللازمة لكلمة «تدبر»[1].

وثانياً : بعقلٍ ونظرٍ سليم .وجميعُ آيات التدبر الأربعة تدل عليه ، وتستلزمه .[2]

وثالثاً : للقرآن بتمامه . ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء: ٨٢] ، فليس شيءٌ من القرآن أولى بالتدبر من غيره ، بل جميعه محلٌّ لذلك ؛ من مبدأه إلى عاقبته ، وما بين ذلك من معانيه وأخباره وأحكامه . وقد أخبرنا الله عمَّن يتَّبعون ما تشابه من القرآن –والذي هو بعضُه– ابتغاءَ الفتنة ، وابتغاءَ تأويله على غير ما أراد الله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[آل عمران: ٧] ، قال ابن تيمية (ت:728) : (فحَضَّ على تدبره –أي القرآن– وفقهه وعقله والتذكر به والتفكر فيه ولم يستثنِ من ذلك شيئاً .. ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كُلِّه ، وإلاّ فتدبر بعضه لا يوجِبُ الحكمَ بنفي مُخَالَفَةِ

---

(١) ينظر : مادَّة «دَبَرَ» في الصَّحاح 2/ 652 ، وأساس البلاغة 1/ 278 ، ولسان العرب 3/ 358 .

(٢) ينظر : جامع البيان 20/ 79 ، والتحرير والتنوير 23/ 253 .

ما لَمْ يُتَدَبَّر لِمَا تُدُبِّر)[1]. ومحل هذا : فيما انتشر معناه في القرآن ولا يُفهم على الصواب إلا بجميعها ، وفي المعاني التدبرية التي تعارض ما جاء به القرآن في موضع آخر .

ورابعاً : بإزالة العوائق المانعة منه . ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤] ؛ ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] .

فحيثما قام تدبُّرٌ على هذه الأصول الأربعة فهو الذي أمر به القرآن ، وهو المحقق لمقاصده وغاياته الجليلة ولابد ، وكُلُّ تدبر للقرآن أورث شكاً في مصدره ، أو نسب إليه باطلاً أو تناقضاً ، أو أنزله إلى مشابهة كلام المخلوقين ، أو نسبه إلى شر أو نقص ، أو عدم صلاح للدنيا أو بعض شؤونها = فليس بتدبر حَقٍّ ؛ لأن قائله لا ينفك عن أن يكون أخطأ في القصد ، أوفي الطريقة ؛ أما القصد فلا بد أن يكون إصابة الحق لا المكابرة والمغالطة ، وأما الطريقة فلا بد أن يكون التدبر على منهج القرآن الذي بيّنّاه ، لا على غيره من المناهج الخاطئة .

وقد كانت تدبرات العلماء والمصلحين —من لدن الصحابة ، حتى زماننا هذا – خيرَ مثال للمعاني التدبرية القائمة على منهج القرآن في التدبر ، كما احتشدت مصنفات العلماء بالقرآن وعلومه بالكثير المبارك منها .

وفي وقتنا الحاضر ؛ ومع ظهور العناية بشتى علوم القرآن وفروعه في الدراسات الأكاديمية ، والنشاطات الدعوية والتربوية المتنوعة ؛ إلا أن العناية بمنهج التدبر مفهوماً وتأصيلاً ظَلَّ متأخراً في تلك الدراسات والمناشط ، مع وجود تطبيقات عملية شتى داخلةٍ تحت مفهوم التدبر ومقاصده .

---

(١) مجموع الفتاوى 13/ 307 .

ومن أحسن ما يُمَثَّل به لمنهج التدبر القرآني في الوقت الحاضر : مشروع (جوّال تدبر) ، والذي تَفَرَّع عن (الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم) ، وقد خَصَّصت رسالتها بـ : (تحقيق تدبر القرآن الكريم في الأمة ، بمنهج يجمع بين الأصالة و المعاصرة)[1]، وهي من أوائل الجهات العلمية المعاصرة التي اتخذت (التدبر) هدفاً لها ، ومن أميزها أيضاً ، وقد خَطَت هذه التجربةُ شوطاً كبيراً في نشر ثقافة التدبر في المجتمع ، مع الحرص على تأصيل مفهوم التدبر من خلال عددٍ من الإصدارات والملتقيات العلمية .[2]

وفي ظَلِّ تلك الجهود لازالت جوانب من الكمال تستدعي التنبيه والدَّلالة ، ومن أهَمِّها:

أولاً : العناية بجانبي التأصيل والتطبيق للتدبر على السواء ؛ فقد كان لتأخر العناية بمفهوم التدبر ومجالاته أثرٌ على وضوح الجانب التطبيقي واطراده .

ثانياً : السعي للشراكة الرسمية لتحقيق الأهداف المشتركة مع المؤسسات المجتمعية التي تخدم القرآن الكريم تدريساً وحفظاً وفهماً ؛ كوزارة الشؤون الإسلامية ، وجمعيات تحفيظ القرآن ، ووزارتي التربية والتعليم العالي ، وكافّة مراكز ومعاهد تعليم القرآن الكريم ؛ فهذا خير سبيل لنشر ثقافة التدبر وتفعيله في المجتمع .

ثالثاً : الانتقال من المحلية إلى الإقليمية في العالم العربي ، ثم العالمية ، كما هو في المسمَّى : (الهيئة العالمية) ، وهذه من أهمّ القيم التي تشهد بمصداقية أيّ مؤسسة ذات خِطَّة وهدفٍ ورسالة .

---

(١) ينظر : موقع الهيئة على شبكة الانترنت (http://tadabor.com) .

(٢) انطلقت رسائل (جوال تدبر) في غُرَّة رمضان عام (1428هـ) ، ثم جُمِعت الرسائل وظهرت في كتابين إلى الآن ، ثم تفرع عنه باقات تستهدف دائرة أخص من المستفيدين : (جوال ناشئ ، والوسائط) .

وإن من أجَلِّ ما يقدمه القائمون على (مركز تدبر) : إعدادَ مكنزٍ يجمع المعاني التدبرية الصائبة في كل العصور ، مع تصنيفها على الموضوعات ، ثم على ترتيب السور داخل كل موضوع ؛ لتكون مورداً صافياً لكل من أراد من القرآن الكريم شاهداً على معنىً من المعاني السليمة ، في كل زمان .

ولو نشط المركزُ لتنظيم وإخراج (مجالس التدبر) التي تظُمُّ طائفةً من أهل القرآن الذين لهم عنايةٌ بالتدبر علماً وعملاً = لكان خير سبيل لنيل هدايات القرآن في كل ما يهم الناس من أمر معاشهم ومعادهم ، وما يستجدُّ من أحوالهم .

*** أبرز مناهج التدبر المعاصرة :**

ظهرت في وقتنا هذا –إزاء ذلك المنهج القرآني في التدبر– مناهجُ تتغيّا بعض غايات التدبر ؛ كإثبات أنه من عند الله ، وأنه لا يختلف في نفسه ، ويطابق الواقع ولا يخالفه ، ومن أبرزها : الدراسات المعاصرة حول إعجاز القرآن العلمي والعددي ، وينبغي العناية بهذا الجانب من مناهج التدبر ؛ لِمَا له من الانتشار في الواقع ، ولِمَا يُخشى من أثره ما لَم يُحرَس بمعالم المنهج القرآني الأصيل طريقةً وغايةً .

وهذه الدراسات تدخل تحت مسمى التدبر في تعريفه وغايته ، لكن كثيراً منها لم يخلُ من ملاحظات مؤثرة ، تبعث الباحثَ على القلقِ من نتائجها ، ومن أبرزها :

أولاً : أنها تقطع بالنتائج قبل استيفاء التأمل وتمامه ، وقبل التأكد من سلامة المقدمات التي تُبنَى عليها المعاني التدبرية ، قال ابن القيم (ت:751) : (وتدبُّر الكلام : أن ينظرَ في أوّله وآخره ، ثم يعيد نظرَه مرّةً بعد مرّةٍ ، ولهذا جاء على بناء التفعّل ، كالتفهّم ، والتبيّن)[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة 1 / 183 .

ثانياً : أن مآلات الأمور فيها مظنونة لا تورث اليقين ، وقد تَكَفَّل الزمان بنقض دراساتٍ قامت في وقتها على مقدماتٍ بمثابة الحقائق عند أهلها ، ثم لم تلبث أن توارت خلف الحقائق العلمية المستجدة بعد ذلك .

ثالثاً : أن العقلَ والنظرَ السليمَ لا يقطعُ بكثيرٍ منها ، ومنها ما تتساوى فيه دواعي القبولِ والرفضِ ، والصحةِ والبطلانِ ، ومثل هذا لا يوصل لليقين ، فضلاً عن أن يُحَقِّقَه في القلب . وحين تُجعَل هذه الدراساتُ طريقاً للإيمان -وهي بهذه المثابة من التردد وعدم الثبات- نخاطر بنتائجها على الإيمان نفسه ؛ فإنها بذلك طريقٌ للشك ، بنفس القدرِ الذي أريدَ به أن تكون طريقاً للإيمان .(١)

رابعاً : أن منها ما يناقض القرآن في مواضعَ أُخَرَ أو يخالفه ، وكثيراً ما يغيب هذا الجانب في تلك المناهج ؛ فإنك ترى في بعض تلك الدراسات الإصرارَ على الرأي في الموضع الواحد ، مع عدمِ التنبهِ والاهتمامِ بالمواضع الأخرى التي تخالف ذاك المعنى ، ومثل هذا التصرفِ يُدخِلُ صاحبه فيمن ذمَّهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾[البقرة: ٧٨] ؛ فلا يأخذ من المعاني إلا ما تهواه نفسه وتتمناه . كما أن عامَّة من يكتب في تلك الدراسات ليسوا من ذوي العلم بالقرآن حفظاً وفهماً ، فتقع منهم الغفلة عن الاستيعاب .

وهذا الواقع لهذه المناهج التدبرية يستلزمُ الدعوةَ الجادّة إلى ضبطها وتأصيلها بمنهج القرآن في باب التدبر ، وهو في الحقيقة ما يثري هذه الدراسات ، ويزيدها قبولاً وانتشاراً ونفعاً بإذن الله .

---

(١) ينظر : (منهج الاستدلال بالمكتشفات العلمية على النبوة والربوبية - دراسة نقدية) ، للدكتور سعود العريفي ، ضمن بحوث مجلة جامعة أم القرى ، العدد (43) ، لعام 1428هـ .

ومن المناهج الحديثة في التعامل مع القرآن الكريم : مناهج (القراءات المعاصرة) للقرآن ، ومنذ أن ظهرت هذه الدعاوى إلى وقت انتشارها ثم انحسارها = لا ترى فيها أثراً لمنهج التدبر ولا لتطبيقاته ؛ عدا بعض التطبيقات المغلوطة للأعداد في القرآن . وهذا راجع لنظرتهم للقرآن الكريم ؛ وأنه نص تاريخي أو إنساني ، لا يرقى أيضاً إلى أن يُفسَّر كُلَّه ، وإنما لهم تطبيقات متفرقة توضح منهجهم في التعامل مع هذا النص . ومادام ذلك موقفهم من التفسير فهم عن التدبر أبعد وأضل ، كما أن غايات التدبر ومقاصده تناقضُ تماماً الغاياتِ والمقاصدَ المعلنةَ لتلك القراءات الحادثة .[1]

ثالثاً : التقسيم الأنسب لموضوعات التدبر :

يمكن أن تُقَسَّم المعاني التدبرية بحسب (المُتَدَبِّر) ، فتُقسَمُ إلى : تدبرات العلماء ، والفقهاءِ ، وأهلِ اللغة والبيان ، والعُبَّادِ والصالحين ، وعامَّةِ المسلمين ، وحديثي العهد بالإسلام ، وغيرِ المسلمين ، ونحو ذلك . وهذا التقسيم يُمَيِّز المعاني التدبرية بحسب قائلها لا بحسب موضوعها .

كما يمكن تقسيمها بحسب الموضوعات (المُتَدَبَّر) ، فتشملُ : تدبراتٍ في العقيدة ، والمنهجِ ، والأحكامِ ، واللغةِ والمعاني ، والأخلاقِ والسلوكِ ، والتربيةِ ، ونحوها . وهذا التقسيم يميز المعاني التدبرية بحسب موضوعها ومقاصد معانيها .

وبالنظر إلى مقاصد التدبر في القرآن فإن تقسيم المعاني التدبرية بحسب موضوعاتها هو الأنسب ، والأقرب إلى تحقيق تلك المقاصد ، وفي آيات التدبر أيضاً ما يُشعِرُ بذلك ؛ حيث جاء التصريح فيها بِمَا يُتَدَبَّر : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[محمد: ٢٤] ، ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟

---

(١) ينظر : العلمانيون والقرآن الكريم (ص 332 ، 601) .

﴿ٱلْقَوْلَ﴾[المؤمنون: ٦٨] ، وأُطلِقَ الخطاب فيها لمن يَتَدَبَّر ولم يُحَدَّد ، وربما أخبر غيرُ المسلم عن معنىً تدبره وتأثر به لا يقلُّ صِحَّةً وصفاءً عن تدبرات بعض علماء المسلمين .

رابعاً : هل من التدبر ربط الواقع بالقرآن؟ وكيف يكون ذلك؟

أُنزِل القرآن ليتدبره كل أحد ، ويتعرف به الحق الذي يعيش به في زمانه ، وقد سبق أن من مقاصد التدبر الجليلة : نفيَ الاختلاف عن القرآن ؛ سواءً اختلافه في نفسه –بتفاوت معانيه وأحكامه وبلاغته– ، أو اختلافه مع الواقع –كاختلاف بعض أخباره الغيبية مع الواقع ، أو اختلاف منهجه التشريعي مع الطبيعة البشرية والنواميس الكونية–[١]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ، قال ابن القيم(ت:751) : (ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته –أي القرآن– وتضَمُّنِه له ، ويظنونه في نوعٍ وفي قومٍ قد خَلَوا من قبلُ ولم يُعَقِّبوا وارثاً ، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن)[٢]، وذلك حين يشعر قارئُ القرآن وسامعه أن هذا الكلام لا علاقة له بواقعه ، بل هو في غيره ، وفيمن مضى ، فهناك لا يُنتَفَعُ بالقرآن ؛ لأنه لن يرى انتظام القرآن لواقعه وعدم اختلافهما ، ولن يتلمس هدايات القرآن في تفاصيل ذلك الواقع .

وقد كان الاستشهاد بالقرآن على الواقع شأنَ المتدبرين ، بل هو ما يميز أهلَ القرآن الذين هم أهله وخاصته عن غيرهم ، كما أنه شأنَ العلماء الربانيين في كل زمان ،

(١) ينظر : درء تعارض العقل والنقل 1/ 228 ، وروح المعاني 5/ 121 ، وفي ظلال القرآن 2/ 721 .

(٢) مدارج السالكين 1/ 343 .

وشرطَ المجددين منهم ؛ الذين يتدبرون في واقعهم ؛ فتتبين لهم مآلات الأمور كالعيان ، ثم يتدبرون ما يمسُّ ذلك الواقع من معاني القرآن وهداياته .

ولا تكاد تخلوا تفاسير العلماء في كل عصر من تدبرات ارتبطت بوقائع أزمانهم ، وممَّن أكثر من ذلك من المفسرين : أبو أحمد الكَرَجيُّ القَصَّاب (ت:360)[1]، وأبو بكر بن العربي(ت:543)[2]، وأبو عبد الله القرطبي (ت:671)[3]، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت:728)[4].

وفي عصرنا الحاضر اعتنى بهذا النوع من التدبر طائفةٌ من العلماء الذين نهجوا الإصلاح بالقرآن ، وتنزيل معانيه على واقعهم ، فظهر جليّاً في تفاسيرهم الإفاضة في المعاني التدبرية التي تَمَسُّ حال الأمة في وقتهم ، بل ربما استطرد بعضهم في بعض تلك المعاني إلى ما يشبه التصنيفَ المفردَ فيها داخلَ تلك التفاسير[5].

---

(١) ينظر : نكت القرآن 1/ 192 ، 2/ 146 ، 152 ، 197 ، 436 ، 4/ 183 .

(٢) ينظر : أحكام القرآن 1/ 466 ، 526 ، 2/ 70 ، 423 ، 473 ، 3/ 236 ، 451 .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن 1/ 335 ، 2/ 338 ، 3/ 40 ، 243 ، 4/ 176 ، 7/ 7 ، 10/ 318 ، 236 ، 12/ 203 ، 13/ 115 .

(٤) ومن ذلك قوله رحمه الله : (فإذا قرأ الإنسان سورة الأحزاب ، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي : كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن ، ثم اعتبر هذه الحادثة –دخول التتر لديار المسلمين– بتلك = وجد مصداق ما ذكرنا ، وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة كما انقسموا في تلك ، وتبيَّن له كثيرٌ من المتشابهات) ، ثمَّ فَصَّل تلك الوقائع بحسب سياق السورة . مجموع الفتاوى 28/ 440–467 .

(٥) ينظر : أضواء البيان ، للشنقيطي 3/ 487–542 ، 4/ 107–111 ، 7/ 173–185 ، 651–663 ، وقد جُمِعَت مع أمثالها من التأملات في : (عقود الجُمان من أضواء البيان) ، وجاءت في أكثر من (500)

ومن أبرز المفسرين المعاصرين المعتنين بهذا الجانب : محمد رشيد رضا (ت:1354) ، وعبد الحميد بن باديس (ت:1359) ، وعبد الرحمن السعدي (ت:1376) ، وسيد قطب(ت:1386) ، ومحمد الأمين الشنقيطي (ت:1393) ، والطاهر ابن عاشور (ت:1393) ، وعبد الرحمن الدوسري(ت:1399) ، ومحمد بن عثيمين(ت:1421) .

ومن أهمُّ ما ينبغي العناية به في هذا النوع من التدبر :

تحقيق أصول التدبر القرآني : من تأمُّل الأمر في مبدأه وعاقبته ، وبعقلٍ ونظرٍ سليم ، وللقرآن بتمامه ، وبإزالة العوائق المانعة منه . ثُمَّ يضافُ إلى ذلك :

معرفة الواقع على ما هو عليه ، مع الفهم والتدبر التامِّ لِمَا كان عليه ، وما يؤول إليه ، ولا يجتمعُ ذلك لغير عالم ، وقد أخبر الله تعالى عن تفرُّدِ طائفةٍ من العلماء بهذه الخصِّيصَة دون عامَّة أهل العلم ، بل قرن ذلك بذكره لآية التدبر التي تخبر بعدم اختلاف القرآن ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[النساء: ٨٢ – ٨٣] ، وفي اقترانهما في سياق واحد ما يُشعِر بهذا الترابط ، فبعد ذِكرِ الغاية ذَكَر الوسيلة إليها ؛ وهي تدبرات واستنباطات أهل التأمل والاستنباط من العلماء بالقرآن ووقائع الأمور من الأمن أو الخوف .

وحين يتصدر للحكم على الوقائع من لم يجمع هذه الأصولَ على التمام = يحصلُ الخلط والجهل ، وتعمُّ الفتن والأهواء ، ومن تأمل تاريخ المسلمين رأى عامَّة أهلِ البدع على

صفحة ، في جزأين ، كما جاء تفسير الفاتحة مع المباحث المتعلقة بالواقع منها في أكثر من (350) صفحة من تفسير صفوة الآثار والمفاهيم ، للدوسري 1/ 26-384 .

غير هدىً في هذا الباب ؛ كالخوارج حين نَزَّلوا آيات الكفار على المؤمنين تنزيلاً كاملاً ، وكالرافضة في التلاعب بآيات القرآن وتقسيمها -بأهوائهم- بين آل البيت وبقية الصحابة . كما أن كثيراً من البلايا والفتن المعاصرة التي نزلت بالمسلمين إنما كان سببها الجهل بهذه الأصول القرآنية في منهج التدبر ، والخطأ في ربطها بالوقائع .

ومن ثَمَّ يتحقق عند العقلاء أن التدبر بمنهجه القرآني أحد أهمّ أسباب تحقيق الأمن -النفسي والفكري والاجتماعي- ، ومنعِ الفتن في المجتمعات الإنسانية كافة .

وبعد : فهذا ما تيسر بيانه بإيجاز حول مجمل تلك القضايا ، وبالله تعالى التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

❖ ❖ ❖

❋ مسرَد المراجع :

1- أحكام القرآن ، لابن العربي ، ت/ عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ط1 ، 1421 .

2- أساس البلاغة ، للزمخشري ، ت/ محمد عيون السود ، دار الكتب العلمية ط1 ، 1419 .

3- استدراكات السلف في التفسير في القرون الثلاثة الأولى-دراسة نقدية مقارنة ، لنايف بن سعيد الزهراني ، دار ابن الجوزي ط1 ، 1430 .

4- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، لمحمد الأمين الشنقيطي ، طُبع بإشراف/ بكر أبو زيد ، دار عالم الفوائد ط1 ، 1426 .

5- البحر المحيط ، لأبي حيّان الأندلسي ، دار الكتب العلمية ط1 ، 1422 .

6- التحرير والتنوير ، للطاهر ابن عاشور ، نشر الدار التونسية .

7- التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ط1 ، 1421 .

8- تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين ، لعبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر ، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ط1 ، 1428 .

9- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، لعبد الرحمن السعدي ، ت/ محمد النجار ، مؤسسة الرسالة ط1 ، 1415 .

10- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ت/ عبد الله التركي ، دار هجر ط 1 ، 1422 .

11- الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله القرطبي ، ت/ عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ط4 ، 1422 .

12- درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية ، ت/ إياد القيسي ، مكتبة الرشد ط1 ، 1427 .

13- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للآلوسي ، ت/ محمد الآمد ، وعمر عبد السلام ، إحياء التراث العربي ط1 ، 1420 .

14- الصَّحاح ، للجوهري ، ت/ أحمد عبد الغفور عطَّار ، دار العلم للملايين ط4 ، 1410 .

15- صفوة الآثار والمفاهيم ، لعبد الرحمن الدوسري ، دار المغني ط1 ، 1425 .

16- عقود الجُمان من أضواء البيان ، لعبد الله بن محمد الشنقيطي ، دار روضة الصغير ط1 ، 1413 .

17- في ظلال القرآن ، لسيد قطب ، دار الشروق ط9 ، 1400 .

18- لسان العرب ، لابن منظور ، دار عالم الكتب ، 1424 ، مصورة عن الطبعة الأميرية سنة 1300 .

19- مجلة جامعة أم القرى ، العدد (43) لعام 1428هـ .

20- مجلة معهد الإمام الشاطبي بجدة ، العدد الرابع 1428هـ .

21- مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، ت/ عبد الرحمن بن قاسم ، 1418 .

22- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن القيم ، ت/ محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، 1392 .

23- مفهوم التدبر في ضوء الدراسة التحليلية لآياته في القرآن ، لمحمد بن زيلعي هندي ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث ط1 ، 1430 .

24- موقع (ملتقى أهل التفسير) على شبكة الانترنت (www.tafsir.net) .

25- موقع (الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم) على شبكة الانترنت (http://tadabor.com) .

26- نكت القرآن ، لمحمد بن علي القصَّاب ، ت/ د.علي التويجري وآخرين، دار ابن القيم ط1 ، 1424 .

❖ ❖ ❖